من قضايا النقد الأدبي القديم في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني

د / عمر بن طرية
مخبر النقد ومصطلحاته
جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)

الملخص

تروم هذه الورقة البحثية البحث في سفر نفيس من أسفار كتب الأخبار الفريدة من نوعها في موسوعيتها ، واحتفائها بالتراث العربي في شتى مجالاته ، فكان معينا لا ينضب ينهل منه الباحثون والدارسون ، وينتقون من دره . ذلك السفر هو كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني. وغايتنا من هذه الدراسة إماطة اللثام ، ونفض الغبار عن هذا السفر ، وإبراز بعضا من فوائده الجمة ، وبعثه من جديد. ومنهجنا في الدراسة ، المنهج التاريخي وكذا المنهج الوصفي التحليلي.

الكلمات المفتاحية : الأصفهاني ، الأغاني ، قضايا ، النقد ، الأخبار

Summary

This research paper aims to search for a rare book of unique books in its history, and to celebrate the Arab heritage in all its fields: there was an inexhaustible number of scholars, chosen from among its dhars. This trip is the book of songs for Abu Faraj al-Asfahani. The purpose of this study is revealed, and dust on this trip, and highlight some of the benefits of great, and resurrected. Our approach to the study, the historical approach, as well as the descriptive analytical approach.

keywords : Asfahani, songs, problems, critics, news

Sommaire

Ce document de recherche a pour but de rechercher un livre rare de livres uniques dans son histoire, et de célébrer le patrimoine arabe dans tous ses domaines: il y avait un nombre inépuisable d'érudits et d'érudits, choisis parmi ses dhars. Ce voyage est **le** livre de chansons pour Abu Faraj al-Asfahani. Le but de cette étude est révélé, et la poussière sur ce voyage, et mettre en évidence certains des avantages de grande, et ressuscité. Notre approche de l'étude, l'approche historique, ainsi que l'approche analytique descriptive.

les mots clés: Asfahani, chansons, problèmes, critiques, nouvelles

تقديم

قرطبة أم المدائن ، وحاضرة من حواضر العلم والمعرفة ، عرف أهلها بباعهم الطويل في العلم ، و سمو ق منزلتهم في الآداب والفنون ، لهم قدم راسخة في عالم الثقافة والفكر .

وقف ابن العباس الوزير مخاطبا سكان قرطبة فقال : " انتم معشر الأعلام و أكابر الرجال ،غرر المصر ، وبقايا هذا العصر ، وموضع اقتباس الناس و الرأي ، والملأ المقتدى به ، والمشار إليه ، من حاط هذه الملة ، وانتدب لصالح هذه الأمة " ([1])

تعتبر قرطبة نقطة إشعاع ثقافي بلغت كل إلى الأندلس والمغرب جميـــعا ،إذ كانت عامرة بالعلماء ، مزدانـــة بالشعراء والأدباء ، ومقصدا للطـــلاب والمريدين من كل حدب وصوب ، يتسابقون إلى علمائها ، وشيوخـــها للأخذ عنهم ، والانتظام في حلقهم .

و أشاد كثير من العلماء ، والأدباء ، والشعراء بمكانة قرطبة ، فقال أبو البقاء الرندي متسائلا :

وَ أَيْنَ قُرْطُبَةُ دَارَ اَلْعُلُومِ فَكَمْ *سَمَا بِهَا عَالِمٌ فِيهَا لَهُ شَأْنُ ؟([2])

وقال أخر :

بِأَرْبَعٍ فَاقَتْ اَلْأَمصَارَ قُرْطُبَةُ * مِنْهُنَّ قَنْطَرَةُ اَلْوَادِي وَ جَامِـــعُهَا

هَاتَانِ ثِنْتَانِ ، وَالزَّهْرَاءُ ثَالِثَةٌ* وَاَلْعِلْمُ أَعْظَمُ شَيْءٍ، وَهُو رَابِعُهَا ([3])

التعريف بالأصفهاني :

اسمه و نسبه :

هو علي ([4]) بن حسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم المرواني الأموي القرشي ، كنيتـــه أبـــو الفـــرج ، و لقبـــه الأصفهاني نسبة لمديـــنة أصفهان .

ولادته و نشأته :

و لد في مدينة أصفهان سنة 284 هـــ ، ولكن كتب التراجم و الطبـــقات كانت ضنينة بالأخبار عن نشـــأة أبـــي الفرج الأولى ، فلم تذكر شيئا يشفي ظمأ صاحب الإطلاع على بذور طفولته و نشأته ، وأقصـــى مـــا أفـــادت بـــه ، أنـــــه تـــــرك أصفهان ، و يمم وجهه شطر بغداد حاضرة العلم و العلماء و الأدبـــاء يومئذ ، و كانت تشد إليهـــا آباط الإبل – من كل فج عميق – طلبا للعلم ، و الاستزادة من المعرفة ، جريا وراء الشهرة و ذيوع الصيت .

ذكرابن خلكان أن أبا الفرج كان: " أصفهاني الأصل ، بغدادي المنشـــأ ، وكان مـــن أعيـــان أدبائهـــا ،و فـــراد مصنفيها وكان عالما بأيام الناس ، و الأنســـاب ، و السير " ([5])

عرف الأصفهاني بذكاء وقاد ، و حافظة قوية ، و حضور البديهة ، كما عرف بحبه للعلم ، و شغفه بالأدب ، و هيامه بالطرب و الموسيقى و الألحان .

سلخ أغلب عمره ببغداد يختلف إلى دكاكين الوراقين طلبا للمعرفة ، منكبا على القراءة و المطالعة ،و ليس هـــذا فحسب ، وإنما جالس الأدباء والعلماء يأخذ عنهم فيض علمهم ، و يسترشد بمنـــاهجهم ،و طـــرائقهم فـــي التـــدريس والتصنيف .

ثقافتـــــه:

كان الأصفهاني واسع الثقافة، ملما بعلوم عصره ، متبحرا في الأدب و اللغة ، متضلعا في قواعد الموســـيقى و الغناء ، حاذقا بالألحان و الأصـــــوات . أخذ الأصفهاني هذه الثقافة عن جمع غفير من العلماء ، الذين كانت لـــهـــــم أيـــادي بيضاء على تكوينه ، و مده بألوان جمة من الثقافة .صال و جال الأصفهاني في مختلف دروب المعرفـــة ، و الثقافة ينهل من كل المناهل ،و يرد مـــن كـــــل الموارد حتى قال ابن خلكان : " كان يحفظ من الشـــعر و الأغـــاني و الأخـــــبار و الآثار ، و الأحاديث المسندة و النسب ما لم أر قط من يحفظ مثله ،و يحفظ دون ذلك من علوم أخر،منها اللغة والنحو، والخرافات ،و المغازي ،والسير ... و له شعر يجمع إتقان العلماء ، و إحسان ظرفاء الشعراء " ([6])

و مهما يكن من أمر ، فإن الأصفهاني كان على قدر هائل من الثقافة والمعرفة ، ومحصلة ثقافته، جهود شيوخه ، و عصاميته التي عنت في كثـــرة القراءة ، و حب المطالعة ، و الانكباب على الكتب يعب منهـــا فهمـــا وحفظـــا و استيعابا ، و تأليفا .

وفاتـــــه :

أجمعت كتب التراجم و الطبقات على أن الأصفهاني توفي يوم الأربـــعاء رابــع عشــر ذي الحجــة ســت و خمسين و ثلاثمائة . (356 هـــ) ، ببغــداد ، وهذه السنة توفي فيها عالمان كبيران و ثلاثة ملوك عظام ؛ فالعالمان : أبـــو الفرج و أبوعلي القالي أما الملوك الثلاثة : " سيف الدولة الحمداني ، و معز الدولة بن بويــه ، و كــافور الإخشيدي " (7)

تآليفـــــه:

ترك الأصفهاني تآليف كثيرة، متنوعة الموضوعات و الفنون ، ولكن أغـــلبها ضاع وا ندثر مــع الــزمن ، و النكبات التي حلت بالبلاد العربية الإسلامية ، و لم يبق منها إلا القليل النادر .

قال العسقلاني : " له تصانيف كثيرة سائرة و كان سريع النادرة " (8)

ذكر الدكتور محمد أمين فرشوخ نقلا عن ياقوت الحموي قال :"قال ياقـــوت و تصانيفه كثيرة ، و هذا الــذي يحضرني منها : كتاب الأغاني الكبير ، كــتاب مجرد الأغاني ، كتاب التعديل و الانتصاف في أخبار القبائل و أنسابها ، كتاب مقاتل الطالبين ، كتاب أخبار القيان ، كتاب الإماء الشواعر ، كتـــاب جمهرة الأنساب ... و له تصانيف جياد فيما بلغني كان يصنفها و يرسلها إلى المسؤولين على بلاد المغرب من بني أمية يحسنــون جائـــزتـــه " (9)

ولعل أهم مصنفاته التي بلغ بها الشهرة ، و تألق بهافي بحـــر العلوم والآداب ، و عــززت مكانتــة ، و خلدت اسمه شاهد العصر كتابه الموســـوعي " الأغاني":

الذي سأفرد له حديثا موجزا تعريفا به ، و بمضمونه ، و لمحـــــة عن منهجه ، و إيرادا لبعض النمــاذج منه على سبيل التمثيل لا الحصر.

التعريف بالكتاب :

الأغاني سفر عظيم ضخم ، و موسوعة أدبية فنية نادرة ، يقع في واحد و عشرين مجلدا ، بناه صــاحبه علــى الأصوات المختارة في الغناء ، و التي عددها مئة صوت .التي أمر الخليفة الرشيد مغنيه إبراهيم الموصلي و لفيفا مــن المغنين البارزين أن ينتخبوها له، فاتكأ الأصفهاني عليها ، ولم يكتــف بذكر اللحن و الأشعار ، وإنما يعرض للشعراء ، فيقدم لهم التراجم ، و كذلك يتعرض إلى أحوال من غناها ، موردا ذلك بدقة متناهية ، معتمدا على الأسانيد ، و من ثمة قال حنا الفاخوري : "الكتاب موسوعة أدبية و تاريخية ، و مصدر هام من مصادر الأدب و التاريخ " (10)

سلخ الأصفهاني من عمره خمسين عاما في تأليفه ، و خطه مرة واحــدة في حياته بخط يده .

مضمون الكتاب و منهجه :

كتاب الأغاني من الكتب النادرة في موضوعه و ثرائه ، و نفاسته ، فهـــو كتاب غناء و موسيقى قبل أن يكــون كتاب أدب و أخبار و سير ، فالعمود الفقري الــذي يقوم عليه الكتاب المئة صوت المختارة ، و التي نجم عنها بالضرورة التعــرض إلى أصحابها و التعريف بهم ، وذكر أخبارهم وأشعارهم ، و سيرهم ، فجاء الكتاب شاملا موســوعيا حــوى ألوانا مختلفة ، و متباينة ، ومتعددة من العلوم و المعارف شكلت معالم رئيسة، وفي هذا السياق يقــول مؤلــف الكتــاب موضحا منهجـــه ، و طريقته : " هذا كتاب ألفه أبو الفرج ... و جمع ما حضره وأمكنه جمعه من الأغــاني العربيــة قديمها و حديثها، و نسب كل ما ذكره إلى قائل شعـــــره ، وصانـــع لحنـــه و طريقتـــه مـــن إيقاعــه و إصبعــه التــي ينتسب إليها من طريقته ... وأتـــى في كل فصل مــن ذلك بنتف تشاكله ، ولمع تليق بـــه ، و فقــر إذا تأملها قارئها لم يزل متنقلا بها من فائدة إلى مثلها ،ومتصرفا فيـــها بين جد و هزل ، و آثار وأخبار، و سير وأشعار متصلة بأيام العرب المشهورة وأخبارها المأثورة ..." (11)

و من هنا يتبين أن أبا الفرج اعتنى في الأصل بالأصوات المختارة ، قبل أن يعرج على النواحي الأدبية الإخبارية السيرية ، فالكتاب إذا في الأصل كتاب غناء و ألحان .

إن كتاب الأغاني فضلا عما سبق يعد تحفة نفيسة نفاسة الأصوات المختارة بعد أن يذكر الأصفهاني صوتا من الأصوات حتى ينقلنا على أجنحة الطير يتطوف بنا في رحلة شيقة ممتعة، فيرفع الستار عن مغني ذلك اللحن و أخباره ، معرجا على الشاعر و أشعاره الموصولة بالخلفاء و الملوك فيمتعك بالخلفاء و مجالسهم و أسمارهم ، وما يدور فيها، و هو في كل ذلك يشفع آراه و أخباره و روايته بالإسناد . ولا يكتفي بالرواية الواحدة ، و إنما يحيط بجميع الروايات إذا تعددت ، و يثبتها على تباينها و اختلافها. و طيلة الرحلة على مدار أجزاء الكتاب برمتها ، يجعلك تعيش عن كثب أخبار العرب و أيامهم و مفاخرهم و أنسابهم، و تغطية كاملة للجوانب الاجتماعية بدء من الجاهلية إلى القرن الثالث الهجري، كما يعرج بك على أماكن انتشار الغناء، لاسيما مكة، و المدينة ،و بغداد . كما يجعلك تتلقى كما هائلا من التراجم و السير، يضاف إلى هذا كله متع من الأفنان الأدبية شعرا و كتابة ،و خطابة و قصصا ، وملحا و نوادر ....إلخ ،و إن شئت فأستمع إلى الصاحب ابن عباد ، و هو يصف كتاب الأغاني مسفرا عن نفاسته و قيمته فيقول بأنه : " مشحون بالمحاسن المنتخبة و الفقر الغريبة، فهو للزاهد فكاهة ، وللعالم مادة و زيادة ، و للكاتب و المتأدب بضاعة و تجارة ،و للبطل رجلة، وشجاعة، و للمتطرف رياضة و صناعة، وللملك طببة و لذاذةٍ " ([12])

و من هنا بات واضحا أن الأغاني كتاب غناء و موسيقى و أدب ، و أخبار، وسير ...وغيرها،ومن ثمة لم يسلم من الطريقة الاستطرادية التي كانت سائدة عند العلماء السابقين من أمثال :(الجاحظ ، و ابن قتيبة ، و المبرد)،و غيرهم ، كما أنه لم يسلم من الإطناب و الحشو، مما حدا بأبي الفرج أن يقدم اعتذاره عن كثرة الحشو و الاستطراد فقال :"إن طباع البشر محبة الانتقال من شيئ إلى شيئ ، و الاستراحة من معهود إلى مستجد " ([13])

في هذه العبارة يوضح الأصفهاني ما الدافع إلى التنقل من فكرة إلى أخرى ، ومن باب إلى أخر ؛ ذلك أن النفس البشرية من سجيتها تمل الرتابة ، وتمل أن تبقى حبيسة شيء واحد لمدة طويلة ،و تنجذب إلى التنوع بين الفينة و الأخرى ولذلك كانت هذه الطريقة مثلى لدفع الملل و الضجر ، وإسباغ المرح و التشويق و في ذلك يقول الأصفهاني : " لأنه كل منتقل أشهى إلى النفس المنتقل عنه " ([14])

و مهما يكن من أمر ، فإن تسويغ الأصفهاني للاستطراد و الحشو في كتابه لن يعدم أن الكتاب يختل من حيث ترتيب أبوابه و مباحثه على الرغم من أن طريقة الاستطراد تحقق عنصر التشويق و المتابعة .

و بعد التعرض إلى كتاب الأغاني من حيث التعريف به و الإشارة إلى مضمونه ومنهاجه وأسلوبه نعرض نماذج منه لتتضح الرؤية أكثر.

نماذج مختارة من كتاب الأغاني :

النموذج الأول :

من أخبار حماد الرواية و نسبه :

قال الأصفهاني : " أخبرني محمد بن المرزبان قال حدثنا أحمد بن الحارث الخراز عن المدائني قال : قال الوليد بن يزيد لحماد الرواية : يا أمير المؤمنين ، إن كلام العرب يجري على ثمانية وعشرين حرفا ، أنا أنشدك على كل حرف منها مائة قصيدة ، فقال إن هذا الحفظ !هات ، فاندفع ينشد حتى مل الوليد ، ثم استخلف على الاستماع منه خليفة حتى وفاه ما قال ؛ فأحسن الوليد صلته وصرفه" ([15])

النموذج الثاني :

من أخبار الغريض *:

صوت :

وَ مَا زِلْتُ مِنْ لَيْلَى لَدُنْ طَـرَّشَارِبِي * إِلَىاَلْيَوْمِ أُخْفِي حُبَّهَا وَأُدَاجِـنُ

وَ أَحْمِلُ فِي لَيْلَى ضَغَائِنَ مَعْشَـــــرٍ * وَتُحْمِلُ فِي لَيْلَى عَلَّى الضَغَائِـنُ

عروضه من الطويل . الشعر لكثير* بن عبد الرحمان . و الغناء لمعبد ثقيل أول بالبنصر عن حـبش . و فيـه لحن للغريض .

أخبرني الحسين بن يحي عن حماد عن أبيه قال : كان الغريض إذا غنى ببيتيـن لكثير قال : أنا السريجي* حقا ، ولم يكن يقول ذلك في شيء من غنائه ، و كـان من جيد غنائه. وقدم يزيد بن عبد الملك مكة فبعث إلـى الغـريض سرا فأتاه فغـناه بهذا اللحن :

وَ إِنِي لَأَرْعَى قَـوْمَهَا مِنْ جَلاَلَـــهَا * وَ إِنْ أَظْـهَرُوا غِشًّا نَصَحْتُ لَهُمْ جَهْدِي

وَ لَوْ حَارَبُوا قَـوْمِي لَكُنْتُ لِقَـوْمِهَا * صَدِيقًا وَ لَمْ أَحْمِلْ عَلَى قَـوْمِهَا حِقْـدِي

فأشير إلى الغريض أن اسكت ؛ وفطن يزيد فقال : دعوا أبا يزيد حتى يغنيني بما يريد ، فأعاد عليه الصـــوت مرارا ، ثم قال : زدني مما عندك فغناه بشعر عمرو ابن شأس الأسدي :

فَوَا نَـدَمِي عَـلَى الشَّبَابِ وَ وَا نَـــــدَمْ * نَـدِمْتُ وَ بَانَ اَلْيَوْمَ مِنِّي بِغَيْرِ ذَمْ

أَرَادَتْ عَـــرَارَ ابَا لْهَوَان وَ مَنْ يَـــرُدْ * عَـرَارًا لَعَمْرِي بِالْهَوَانِ فَقَدْ ظَلَمْ

قال : فطرب يزيد و أمر له بجائزة سنية . ([16])

النموذج الثالث :

خبر من ذكر المائة الصوت المختارة :

قال الأصبهاني : أخبرني أحمد بن جعفر حجظة قال حدثني هارون بن الحسن بن سهل و أبو العنبس بن حمدون بن الدقاق وهو محمد بن يحي المعروف بابن دقاق بهذا الخبر فـــزعم : أن الرشيد أمر هؤلاء المغنين أن يختـاروا له مائة صوت فاختاروها ، ثم أمرهم باختيار عشرة منها فاختاروها ، ثم أمرهم أن يختاروا منهـا ثلاثـة ففعلـوا . و ذكـــر نحو ما ذكره يحي بن علي بإسناده المذكور أن منها لحن معبد في شعر أبي قطيفة و هو مـن خفيـف الثقيـل الأول:

اَلْقَصْرُ فَالنَّخْلُ فَالْجَمَّاءُ بَيْنَهُمَا * أَشْهَى إِلَى اَلْقَلْبِ مِنْ أَبْوَابِ جَيْرُنِ

و لحن ابن سريج في شعر عمر بن أبي ربيعة ، و لحنه من الثقيل الثاني

تَشَكَّى اَلْكَمَيْتُ اَلْحَرْيَ لَمَّا جَهَدْتُه * وَ بَيَّنَ لَوْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَكَّتمَا

و لحن ابن محرز في شعر نصيب ، و هو من الثقيل الثاني أيضا .

أَهَاجَ هَوَاكَ اَلْمَنْزِلُ اَلْمُتَقَادِمُ ؟ * نَعَمْ ، وَ بِهِ مَنْ شَجَاكَ مَعَالِمُ .([17])

نماذج نقديـــة:

1- نقد الروايات والأخبار :

يرتكز الأصفهاني في كتابه الأغاني ارتكازا كليا على نقد الروايات، وتبيان أوجه التناقض فيما بينها، كما يجلي مواطن الخطأ فيها,فألفيناه في أكثر الأحيان لا يـــورد أبياتا لشاعر من الشعراء،أو خبرا لراوي من الـــرواة،أو رأيـــا،إلا علق عليه وانتقده.

يقول الأصفهاني معلقا على رواية لابن خرداذبه يروي فيها خبرا عن "معبد":"وذكر ابن خرداذبه أنه غنى فـــي أول دولة بني أمية وأدرك دولة بني العباس وقد أصابه الفالج وارتعش وبطل,فكان إذا غنى يضحك منه ويهزأ به.

وابن خرداذبه قليل التصحيح لما يرويه ويضمنه كتابه.والصحيح أن معبدا مات في أيام الوليد بن يزيد بدمشـــق وهو عنده.وقد قيل:انه أصابه الفالج قبل موته وارتعش وبطـــــل صوته؛فأما إدراكه دولة بني العباس,فلم يـــروه أحـــد سوى ابن خرداذبه ,ولا قاله ولا رواه عن أحد,وإنما جاء به مجازفة".([18])

يبدو من خلال ما تقدم أن الأصفهاني لا يـــكتفي بنقل الأخبار وروايتها فحسب,بل ينتقدها,ويوضح المتنـــاقض منها,ويرجح الأصح,ولعل أغلب نقوده انصبت على تصحيح الروايات,ونقد الأخبار.

2-تصويب روايات الشعر:

في كثير من الأحايين كان الأصفهاني ينبه إلى أخطاء الرواة في نسبة الأشعار إلى غير أصـــحابها,ومـــن ثمـــة يعمل جاهدا على تصويبها,ومحاولة الوصول إلى قائلها,فألفيناه-مثلا-يورد أبياتا لداود بن ســـلم،وهو مـــن مخضـــرمي الـــدولتين الأموية والعباسية,ثم يعلق عليها مبينا غلط الرواة. "

قل لأسماء أنجزي الميـــــعادا * وانـــظري أن تزودي منك زادا

إن تكوني حللت ربعا من الشا * م وجـــاورت حميرا أو مـــرادا

أو تناءت بك النوى فلقد قـــــد * ت فـــــؤادي لحـــينه فانقـــــادا

ذاك أني علقت منك جوى الحـــ * ب وليـــــدا فـــزدت سنا فـــــــــزادا ([19])

ثم قال:" قد كنا وجدنا هذا الشعر في رواية علي بن يحـــــــي عن إسحاق منسوبا إلى المـــرقش وطلبنـــاه فـــي أشعار المرقشين جميعا فلم نجده، وكنا نظنه من شاذ الروايات حتى وقع إلينا في شعر داود بن سلم، وفي خبر أنا ذاكره في أخـــبار داود,و إنما نذكـــر ما وقع إلينا عن رواته ، فما وقع من غلط فوجدناه أو وقفنا على صـــحته أثبتناه وأبطلنا ما فرط منا غيره، وما لم يجر هذا المجرى فلا ينبغي لقارئ هذا الكتاب أن يلزمنا لوم خطأ لم نتعمده ولا اخترعناه، و إنما حكيناه عن رواته، واجتهدنا في الإصابة، وإن عرف صوابا مخالفا لما ذكر وأصلحه، فإن ذلك لا يضره، ولا يخلو به من فضل وذكر جميـــل إن شاء الله" ([20]) يبدو الأصفهاني من خلال ما تقدم رجل نقد،لا يقبل الأخبار كما هي،وإنما يقف منها موقف الناقد البصير، فتراه يمحص الخبر، ويسدد الخطأ فيه، ويجد في الوصول إلى الصواب من جهة، كمـــا أنه يلتزم بروح الموضوعية، والتواضع من جهة أخرى.

3-السرقات:

لاشك وأن موضوع السرقات الأدبية يعد من الموضوعات الخطيرة والشائكة في نقدنا العربي القديم، وقد تعرض له كثير من النقاد والدارسين، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى، ووضعوا في شأنه مصطلحات كثيرة ومتنوعـــة أشـــهرها، الأخذ،والإغارة ،والاغتصاب.

في كتاب الأغاني نلاحظ أن أبا الفرج يركز على مصطلحي الأخذ والإغـــارة على المعاني ، خاصـــة المبتكـــرة البديعة.

قال أبو الفرج الأصفهاني:"أخذ إســـحاق الموصلي معنى بيت ابن ميادة في قوله:"**تلت الشمس واشتد كاهلي**". فقال: "

عطست بأنف شامخ وتناولت * يداي الثريا قاعدا غير قائم

ثم علق قائلا:"ولعمري لئن كان استعار معناه لقد اضطلع به وزاد فأحسن وأجاد " ([21])

يبدو لنا أن الأصفهاني يتفق مع الصولي في نظرته إلى الأخذ القائلة بأن الآخذ إذا أخذ معنى و حسنه و قربه ، فهو أولى به . أما عن مصطلح الإغارة ،يذكر الأصفهاني ثلاثة أبيات أغار عليها ابن ميادة ، فأخذها بلفظها و معناها :

أجارتنا إن الخطـــــــــوب تنـــــوب * علينا و بعض الآمنين تصـــيـــــب

أجارتنا لست الغـــــــــداة ببـــــارح * و لكن مقيم مـــــا أقـــــــــام عسيـــــب

وإن تسأليني هل صبرت فإنني * صبور على ريب الزمان صلـــيـــب " ([22])

ثم علق أبو الفرج على هذه الأبيات فقال :

" هذه الأبيات الثلاثة أغار عليها ابن ميادة فأخذها بأعيانها ، أما البيتان الأولان فهما لامرئ القيس قالهما لمـــا احتضـــر بأنقرة في بيت واحد وهو: "

أجارتنا إن الخطوب تنـــــــوب * وإني مقيم ما أقام عـــسيـــب

و البيت الثالث لشاعر من شعراء الجاهلية،وتمثل به أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فـــي رســـالة كتب بها إلى أخيه عقيل ابن أبي طالب،فنقله ابن ميـــادة نقلا " ([23])

4- موقفه من الخصومة القائمة حول أبي تمام و مذهبه في الشعر:

موقف أبي الفرج الأصفهاني من الخصومة القائمة حول أبي تمام و مذهبه الجديد في الشعر واضـــح ، حيـــث يرى أنه لا بد من الإنصاف ، و إحقاق الحق ، و التوســـط في إصدار الأحكام النقدية على أبي تمام و شـــعره ، لأنـــه يرى الإساءة في القليل، و الإحسان في الكثير لا يعد مسقطة . كما يدعو إلى الابتعاد عن المكـــابرة و التعصـــب ، و إغماط الرجل حقه ؛ لأن الحق أحق أن يتبع .

و في هذا الصدد يقول : " و في عصرنا هذا من يتعصب له فيفرط حتى يفضله على كل سالف و خـــالف ، و أقوام يتعمدون الـــرديء من شعره فينشرونه و يطوون محاسنه ، و يستعملون القحة و المكابـــرة في ذلـــك ، ليقـــول الجاهل بهم : إنهم لم يبلغوا علم هذا و تميزه إلا بأدب فاضل وعلم ثاقب ، و هذا مما يتكسب به كثير من أهل هذا الدهر ويجعلونه وما جرى مجراه من ثـــلب الـــناس و طلب معايبهم سببا للترفع و طلبا للرياسة ، و ليســـت إســـاءة مـــن أســـاء في القـــليل ، و أحسن في الكثير مسقطة إحسانه ، و لو كثرت إساءته أيضا ، ثم أحسن لـــم يقـــل لـــه عنـــد الإحسان أسأت ، و لا عند الصواب أخطأت ، والتوسط في كل شيء أجـــمل،والحق أحـــق أن يتبع " ([24])

مما تقدم يبدو لنا جليا أن الأصفهاني كانت له جولات و صولات نقدية واضحة المعالم في كتابه الأغاني كشفت عن أن الرجل لم يكن راويا للأخبار و الروايات وجـــامعا لها فحسب ، و إنما كان يصدر عن روح نقدية لا تقبل الغلط و الحيف عن الصـــواب، بل تصحح ، و تنتقد و تبين أوجه التناقض ، و تأخذ على يد الباحث و الـــدارس و القـــارئ على حد سواء – إلى مواطن الصواب ، و تجنبه الزلل . وتبـــرز آراء الأصـــفهاني النقدية خاصـــة فـــي الأخبـــار و الروايات .

بعد التعرض إلى بعض النماذج المختارة من سفر الأغاني للتمثيل لا للحصـــــر و العد. أجد نفســـي أمـــام سؤال يطرح نفسه و بإلحاح شديد : ما قيمة الأخبـــــار المجموعة في كتاب الأغاني ؟

لا شك و أن الدراسيين للمرويات الواردة في كتاب الأغاني:" لاحظوا أن الأسانيد يعتريها شيء من الضعف ، و علة الضعف – عندهم – كونها أسانيد منقطـــــعة أو مستحيلة ، أو لقرب إسنادها من جمعه" ([25])

أما فيما يتعلق بالنصوص الشعرية و تمحيصها ، فإن الأصفهاني لم يكـــن واســـع الفائدة ، لأنه لم يمكن النقـــد من المقطوعات الشعرية الكاملة حتى يتســـنى الإفـــــادة منها ،ليس هذا فحسب ، وإنما قد يقع الاختلاف في الشواهد من حيـــــث تـــرتيب الأبيات و ضبط الكلمات ، و من ثمة يعسر على الدارس التدقيق في أصـــولها .

و على الرغم من هذه المآخذ والهنات ،و غيرها إلا أن كتاب الأغاني يبـــقى موسوعة تاريخية جامعـــة تـــؤرخ للشعر و النثر عامة ، و للشعر و النثر الجاهلي خاصة .

و الحقيقة إن النقاط التي يمكن استخلاصها من كتاب الأغاني ترتكز فيما يلي :

1- الشمـــــــــولية و التنوع .
2- كتاب غناء و موســـــــيقى .
3- تحلية الاستطراد و الحـــشو .
4- ضعـــــــف الأسانيـــــــد .
5- لم يخضع للترتيب و التسلسل المنهجيين في التبويب .
6- غلبة روح الدعابـــــة و الفكاهة .

قيمة الكتاب و بعض أقوال الدارسين فيه :

يقول ابن خلدون في مقدمته منوها بكتاب الأغاني ، موضحا مدى استيعابه للثقافة العربية استيعابا منقطع النظير : " وقد ألف القاضي أبو الفرج الأصفهاني و هو ما هو كتابه في الأغاني جمع فيـــه أخبـــار العـــرب و أشـــعارهم و أنســـابهم و أيامهم و دولهم حتى يقول فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب و أوفاه " ([26])

وقال عنه ياقوت الحموي : "لعمري إن هذا الكتاب جليل القدر شائع الذكـــر ، جم الفوائد ، عظيم العلم ، جـــامع بين البحث ، و الهزل النحت " ([27])

وقال عنه حنا الفاخوري : " و هو أجمع كتاب للأدب العربي ، ولولاه لضاع معظم الشعر العربي " ([28])

لم يكتف حنا الفاخوري بالقول إن الأغاني موسوعة جامعة للتراث الأدبي ، و النقدي ، و الفكري للأمة العربيـــة ، و الحفاظ عليه من الضياع فحســـب ، و إنما راح يبرز مكانته و قيمته في الدراسات الأدبية و النقديـــة ، فيقـــول : " كتاب الأغاني يعد بحق موسوعة في الأدب و التاريخ ، وكنزا ضخما من كنوز المعرفة ، وبستانا رائعا مـــن بســـاتين الظرف و الحياة المشرقة " ([29])

و يبرز بلاشير قيمة الكتاب و منزلته بين المصادر العربية في معرض حديثه عن جملة منها فيقول : " ومهمـــا يكن من أهمية تلك المصادر التي عددناها فهي دون كـــــتاب من الطراز الأول ألا و هو " الأغـــاني " لأبـــي الفـــرج الأصفهاني " ([30])

وقال عمر الدقاق : " ويبقى كتاب الأغاني في الذروة من كتب الأدب ليس بوسع باحث أن يستغني عنه " ([31])

خلاصة القول :

إن كتاب الأغاني يعد سجلا حافلا بالمواقف التاريخية ، و الأدبية ، والصدق في الروايـــة ،و التحـــري فـــي نقـــل الأخبار قدر الإمكان ،ومـــازال موسوعة غنية بمواردها و كنوزها .

وصدق طه حسين حين قـــال : " فهو في حاجـــة شديدة جدا إلى أن يقـــرأ و إلى أن يستخلص منه العلم علـــى النحـــو الذي يلائم العقول في هذا العصر الذي تعيش فيه " ([32])

قيمة الأغاني لا تخفى على كل ذي لب ؛ فهو سفر عظيم أفاد منه الدارسون على مرّ العصـــور ، و كـــان لهـــم محجة بيضاء ساروا على نهجها ، و اغترفوا من بحرها وما من بحث أو دراسة في النقـــد و الأدب إلا و كـــان لهـــا حصة الأسد في الأخذ عن الأغاني . و من هنا لا نعجب إذا ما ألفينا أقوال العلماء كثيرة جاءت مثمنة لكتاب الأغاني .

الإحالات والهوامش

[1]-بكري عبد الكريم ، ابن مضاء القرطبي وموقفه من أصول النحو العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائـــر ط 1984، ص 5

[2] -م . نفسه ، ص6

[3]-جبرائيل جبور ، ابن عبد ربه وعقده، دار الأفاق الجديدة بيروت ، ط2 ، 1979، ص25، نقلا عن المقري، نفح الطيب، مصر ، 1949، مج1،ص146

[4]- الزركلي خير الدين ، الأعلام ،دار العلم للملايين بيروت لبنان ط 5 ،1980 مج4 ، ص278

[5]- ابن خلكان ، و فيات الأعيان ، مج 3 ، ص 307 .

[6]- ابن خلكان ، و فيات الأعيان ، مج 3 ، ص307.

[7] - المرجع نفسه ، مج3 ،ص309، وينظر العسقلاني ، لسان الميزان ، ج4 ، ص 221 وينظر الزركلي ، الأعلام ، مـــج 4 ، ص278.

[8]-العسقلاني ، لسلن الميزان ،ج4 ، ص 221.

[9]-ينظر ، محمد أمين فرشوخ ، موسوعة عباقرة الإسلام في العلم و الفكر و الأدب والقيادة ،ج1 ، ص 173 ،174.

[10]- حنا الفاخوري ، الموجز في الأدب العربي و تاريخه ، دار الجيل بيروت ن مج2 ، ط2 ، 1991 ، ص129.

[11]- الأصفهاني ، الأغاني ج1 ، ص1 ، 2 المقدمة .

[12]-مصطفى الشكعة ، مناهج التأليف عند العرب ، ص 331 .

[13]- أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني .ج1 ، ص 4.

[14]-م . نفسه ، ج1 ، ص4.

[15]- الأصفهاني ، الأغاني ،. مج 6 ، ص 2174

*اســـمه عبـــد الملـــك ، و كنيتـــه أبـــو يزيـــد ، لقـــب بـــالغريض ، لطـــراوة و جمعـــه ، و حســـن منظـــره ؛أخـــذ الغنـــاء عن ابن السريج .،و ينظر الأغاني ، مج 2 ، ص 777.

[16]- الأصفهاني ، الأغاني ، مج 2 ، ص 8000 ، 8001.

[17]- م . نفسه ، مج 1 ، ص 7، 8.

* السريجي نسبه إلى شيخه ابن سريج الذي أخذ عنه الغناء.ينظر، الأغاني ، مج 2 ، ص 777

[18]- الأصفهاني ,الأغاني, مج1,ص36

[19]- م ، ن ، مج6 ، ص 2088

[20]- الأغاني,مج6, 2089/2088

[21]- م ،ن ،مج2 ، ص712

[22]- م ،ن ،مج2 ، ص692

[23]- الأصفهاني الأغاني,مج2, ص 692.

[24]- الأصفهاني الأغاني, مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر بيروت لبنان ،(ب ،ط) ، (د .ت)، مج16, ص 303 .

[25]- ينظر ، رجيس بلاشير ، تاريخ الأدب العربي ، (تر) إبراهيم الكيلاني ، ص 155.

[26]-ابن خلدون ، المقدمة ، ص48.

[27]-إحسان النص ، اختيار من كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، ج 1 ، ص 20 .

[28]- حنا الفاخوري ، الموجز في الأدب العربي و تاريخه ، ج2 ، ص 132 .

[29]-المرجع نفسه ، ج2 ، ص 133 .

[30]- رجيس بلاشير ،تاريخ الأدب العربي ،(تر) إبراهيم الكيلاني،ص 150.

[31]-عمر الدقاق ،مصادر التراث العربي ، ص 111.

[32]-ينظر ، محمد أمين فرشوخ ، موسوعة عباقرة الإسلام ، ص 176.